تراث الإنسانية

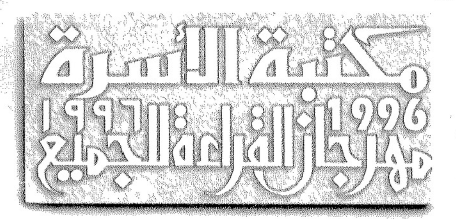
مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

رحلات جليفر

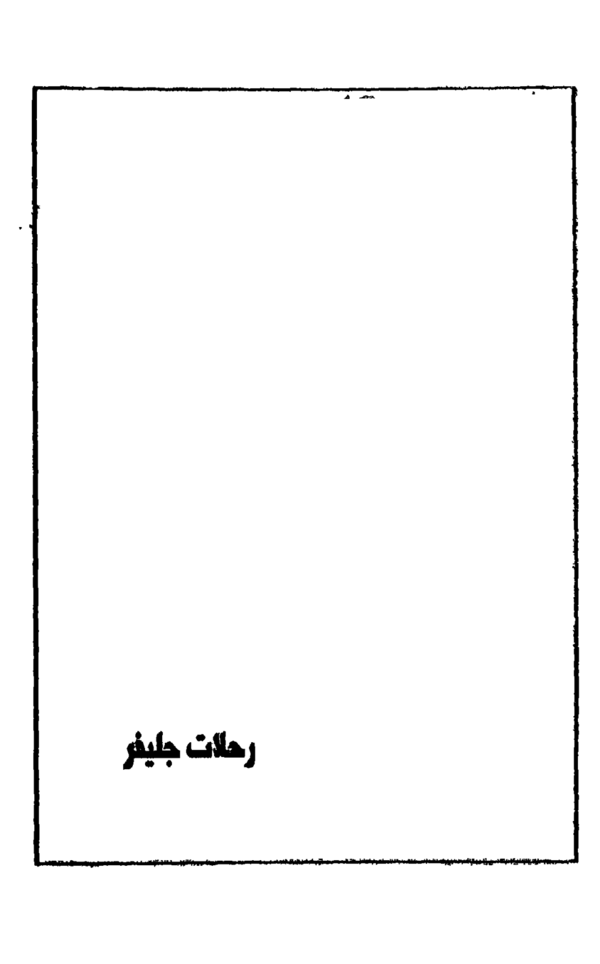
لسويفت

صوفى عبدالله





الهيئة المصرية
العامة للكتاب


رحلات جليفر



مهرجان القراءة للجميع ٩٦
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلي
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

رحلات جليفر

سويفت

صوفى عبدالله

على سبيل التقديم ...

لأن المعرفة اهم من الثروة واهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات .. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالا وشبابا ورجالا ونساء ..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كاضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وايضا تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة .

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما انتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية ..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من اهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق باسعار رمزية اثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية ويأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم اصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة ..

د . سمير سرحان

رحلات جليفر
لسويفت

السيدة: صوفى عبدالله

---

١ ــ حيــــاته

ولد يوناثان سويفت فى يــوم ٣٠ من نوفمبــر سنة ١٦٦٧ بمدنة دبلن بايرلنده وكان جده لأبيه توماس سويفت قسيساً من انصار الملكية ، اما جدته لأبيــه فهى اليزابث درايدن عمة الشاعر المشهور . ووالده كان يسمى يوناثان سويفت ايضاً من موظفى الخاصة الملكية فى دبلن وقــد مات قبل مولد كاتبنا بسبعة شهور تاركاً اسرته فى ظروف عصيبة جداً . وأم كاتبنا من ذوات قربى الشاعر المشهور هريك . وقد رحلت بوليدها اليتيم لتقيــم مع أسرتهــا فى

لايسستر، وهناك عهدت الى جدوين سويفت شقيق زوجها بتربية ابن اخيه الصغير وكفالته فبعثه عمه في سن السادسة الى مدرسة كلكنى التى يقال عنها انها كانت افضل المدارس من نوعها فى ايرلنده . وبعد ثمانى سنوات اخرى ـ اى عندما بلغ يوناثان الصغير الرابعة عشرة من عمره ـ ادخله القسم الداخلي بكلية الثالوث المقدس فى دبلن على امل ان يتخرج فيها قسيساً . واستلفت يوناثان الصغير الانظار فى هذه الكلية بتخلفه الشديد فى دراسته ، حتى لقد رسب رسوباً ملحوظاً فى مادتين من الثلاثة المواد التى تقدم للامتحان فيها كى يحصل على درجته الجامعية التى تؤهله للوعظ والكهنوت ! ... ومع هذا كله حظى الطالب اليتيم المتخلف بعطف المشرفين على الكلية رعاية لظروفه ولتاريخ جده الطويل فى خدمة الكنيسة فمنحته الكلية درجة التخرج بصفة استثنائية اطلقوا عليها اسم « انعام خاص » للدلالة على انها منحة وليست استحقاقاً عن جدارة .

وليس يوناثان سويفت نسيج وحده فى فشله الدراسى الواضح بين المشاهير فى العالم ، بل ولا بين العلمين الشهيرين من ذوى قرباه من جهة امه ومن جهة

ابيه على السواء . فعلى هذه الصفة كان من قبل قريب جدته لأبيه ـــ او على التحقيق ابن خال ابيه ـــ الشاعر المسرحى العظيم درايدن ، وقريب أمه الشاعر الكبير ايضاً هريك الذى خلدت قصائده المشهورة باسم « هبرايدز » . ولكن ليس معنى هذا التخلف الدراسى انه كان فتى سقيم العقل كليل الذهن ثقيل الفهم . فقد اثبتت الأيام بعد ذلك ان مواهبه وملكاته الفردية كانت توجه اهتماماته العقلية وجهة تبعدها عن مجال تلك المواد الدراسية الجافة التى لا تسيغها نفسه ولا يستطيع أن يحمل ذهنه المتوقد على الاستجابة لها متقيداً بحدودها الصارمة المتزمتة . وهو من فطرت نفسه على اللمحات والشطحات وكتب له فى ضمير الغيب أن يصبح اعظم اعلام الأدب الساخر وأنبغ الهجائين فى تاريخ الأدب الانجليزى حتى اليوم .

ويضاف بلا شك الى هذا السبب الفطرى سبب آخر اعلنه سويفت صراحة ، الا وهو حزنه وضيقه بحياته فى تلك المرحلة بسبب ما كان يلقاه من سوء معاملة اقاربه له وهو واقع تحت نير الحاجة اليهم . ويبدو ان عمه جدوين كان فظاً غليظ القلب استطاع ان يجعل خبز الصدقة

الذى يبذله له شديد المرارة كأنما هو معجون بالصــــاب والعلقم .

وفى سنة ١٦٨٨ مـــات جدوين ســـويفت ، وعمـــر يوناثان يومئذ احدى وعشرون سنة ، ولم يترك لابن أخيه ميراثا يعتمـــد عليه فى حياته لأنه كـــان قـــد انقلب مـــن الثراء الى الاعسار الشديد والافلاس قبيل وفـــاته ، فلم يخلف وراءه شيئا سوى الديون .

وبعد ذلك بمدة وجيزة توجه يوناثان الى والدتـــه فى لايسستر ليبحث معها امر مستقبله . وفى السنة التاليـــة حصلت لـــه اسرة امه على عمل متواضع لدى رجل واسع الثراء كبير الجاه من ذوى قرابتها هو السير وليم تمبـــل مكان كاتب اليد أو النساخ الملحق بحاشيتـــه وعـــاش فى داره وتحت كنفه فى موريارك متمتعا بشىء كثير من الرعاية لأن زوجة السير وليم تمبل كانت وثيقة الصلة بأسرة أمه وتكن لها مودة خاصة . وتدرج فى اكتساب الخبرة بالعمل وبالحياة وبالمجتمع حتى صـــار مخـــدومه يؤثره بصحبته ولا يملى رسائله على أحد سواه ، ويعهد اليه أحيانـــاً بكتابة النبذ والمقالات .

وفى قصر مخدومه فى موربارك والأرباض المحيطة بـه التقى بالملك وليم الثالث ذات مرة ، فالسير وليم تمبل كان من رجالات السياسة المعدودين . وبعد ذلك كلفه مخدومه برسالة شفوية فى أمر من أمور السياسة لدى الملك فانبرى سويفت لهذه المهمة وكله ثقة بنجاحه فى اقناع الملك بذلك الاصلاح البرلمانى المنشود . ولكنه عاد من هناك — على حد تعبيره — « وقد تلقى اول جرعة دواء شفته من غروره ! » .

وبمناسبة هذا الغرور نذكر ان هذا العبقرى الشاب كان شديد الاعتداد بنفسه مدركاً حقيقة قدره وعظم موهبته ، ولم تزده ظروف طفولته اليتيمة ونشأته فى كنف الحاجة ومذلتها الا فرط حساسية ضاعفت من كبريائه ونقمته على ظروف الحياة التى تسود العاطلين من المواهب وتخفض من اغدقت عليهم الطبيعة هباتها . ففى صدره على الدوام مرجل يغلى بالاستياء من وضعه فى هذا الدرك الدون من المناصب ، خاضعاً لمن لو انصف القدر لكانوا دونه بمراحل .

ونجد صدى لمرارته الشديدة من هذه الناحية فى رسالته الشهيرة باسم « توجيهات الى الخدم » التى نشرت بعد وفاته :

« تجنب ان تعلو بك السن فى منصب الوصيف ، فهو ذروة المهانة . ولذا انصحك ان وجدت السنين تمر بغير امل فى الحصول على منصب فى البلاط او تولى قيادة فى الجيش او عمل من اعمال الجباية وادارة القصور والمزارع (واعمال الجباية وادارة القصور والمزارع تنفرد دون سابقاتها بضرورة الالمام بالقراءة والكتابة !) او من غير ان تسنح لك فرصة للفرار مع ابنة مخدومك او ابنة اخته او ابنة اخيه ، فخير ما تصنعه ان تخلع الطاعة على الفور وتحترف قطع الطريق ، فقطع الطريق هو العمل الشريف الوحيد الباقى امامك ان سدت فى وجهك تلك السبل . وفيه ستلتقى بكثيرين من رفاقك القدامى وتعيش حياة قصيرة مرحة ثم تغادر الدنيا بصور مرموقة مشرفة ! » .

وقطع الطريق انما هو كناية عن طريقة سويفت فى الحصول على الاستقلال بأى ثمن ، فلا يكون تابعاً خاضعاً لانسان فى عمله ومعاشه ومكانته . وكان طموحه فى البداية يزهده فى خدمة الكنيسة وطمع فى عمل من أعمال الدولة أو البلاط أو الجيش ، وذهب الى بيت السير وليم تمبل على أمل أن يبقى هناك برهة وجيزة ريثما يهيىء له منصباً يشق منه طريقه الى المعالى . بيد أنه شعر

بمرور الوقت أن مخدومه فطن الى كفاءته ومواهبه فلم يعد متعجلا خروجه من خدمته الى عمل من اعمال الدولة وبدأ يوناثان سويفت يفكر فى الكنيسة باعتبارها عملا مستقلا كريماً على كل حال ، ولئن لم يكن افضل الأعمال لشاب طموح فهو افضل من مكان التابع .

وفى سنة ١٦٩٤ — اى وهو فى الثامنة والعشرين تقريباً من عمره — عاد يوناثان سويفت الى ايرلنده ورسم كاهنا لبيعة صغيرة قرب بلفاست بمخصصات تبلغ مائة جنيه فى السنة . الا انه لم يسغ حياة العزلة الجافة قسيساً مغموراً وسط رعية مغمورين معظمهم من الأميين ، فلما ارسل اليه السير وليم تمبل يناشده العودة ويعده بمكانة ارفع وتقديمه لأقطاب السياسة والحكم عاد الى قصره فى موربارك فى مايو سنة ١٦٩٦ حيث انصرف الى توسيع دائرة اطلاعه وتوثيق معرفته برجال زمنه وتيارات السياسة ومشكلات الحكم والمجتمع الى ان مات السير وليم تمبل بعد ذلك بثلاث سنين من غير أن يحقق له شيئاً مما مناه به بصورة واضحة ، فعاد يوناثان سويفت الى أيرلنده وقبل العمل كاهنا خاصا لدى اللورد بيركلى فى قلعة دبلن ، ولكن أهم واجباته فى الواقع

كانت قراءة الكتب المختارة المحترمة لليدى بيركلى .
ولا سيما الكتاب الاثير لديها بعنوان « التاملات » لمؤلفه روبرت بويل . وذات مساء اقدم يوناثان سويفت على عملية غش بارع ، فبدلا من قراءة صفحات هذه التاملات قرا لها الى ختامها تاملات اخرى من غير أن تفطن الى الفرق بينهما . وكانت قراءته من عمل فرغ اخيرا من تاليفه مقلدا ذلك الكاتب تقليدا محكما مع جنوح مفرط الى السخرية والتهكم ، وقد حمل عنه انه « تاملات فى مكنسة »

وفى فبراير سنة ١٧٠٠ منحه اللورد بيركلى ابراشية يتولى كهنتها مع ايراد حبوس ذات قيمة يصل الى مائتى جنيه فى السنة . وكان يوناثان سويفت قد تعرف بشقيقة احد زملاء الدراسة وهى جين وارنج المعروفة باسم فارينا منذ خمس سنين وتعلقت به ، ووجدت فارينا ذلك الدخل كافيا للزواج والحت عليه فى أمره فابى ، واختفت من حياته ...

ويقترن اسمه باسم امراتين اخريين يشير اليهما بكنيتين : فانيسا وستلا . ويرد ذكر الأخيرة منهما على الخصوص فى مواضع كثيرة من آثار قلمه مطنبا حسنها

اطنابا يدل على شديد تعلقه بها ، ولا يدرى احد على التحقيق حقيقة صلاته الحميمة بثلاثتهن . فقد ظلت هذه العلاقات لغزا تحف به الظنون حتى اليوم .

والى فترة اقامته فى قلعة اللورد بيركلى يرجع تاريخ محاولات سويفت الاولى فى السخرية والهجاء ، واشهرها معركة الكتب وقصة طست . وقد تداولتهما الايدى مخطوطتين سبع سنين الى أن قدر لهما ان تجدا طريقهما الى المطبعة فعرف امرهما فى العالم العريض . وهذان العملان فيهما سخرية بارعة لاذعة بالانقسامات والأحزاب الفكرية والاعتقادية الشائعة فى زمنه . وحكاية الطست كناية عن طست على صورة نصف برميل يقال ان البحارة كانوا يلقونه للحيتان كى تتلهى بتقاذفه من مهاجمة السفينة التى يركبونها .

وفى سنة ١٧٠١ دخل سويفت ميدان السياسة بمناسبة الانشقاق الذى حدث بين اللوردات من اعضاء حزب الأحرار . فنشر كتابا غفلا من التوقيع يقطن سخرية تلقفه الناس وبلغ من رواجه ونجاحه أن الكثيرين من المشاهير نسبوا تاليفه لانفسهم ، فاضطر يونانان سويفت الى اعلان الحقيقة . وبعد ذلك مباشرة نشر مخطوطيه القديمين « معركة بين الكتب » و « حكاية

طست » فتبوأ سويفت على الفور مكانة رفيعة بين الصف الأول من ادباء زمنه وصار الصديق والجليس المخالط لعدد من اكبر النبلاء .

وفى سنة ١٧٠٧ قدم سويفت الى لندن بتكليف رسمى لمطالبة الملكة آن ببعض الحقوق الدستورية لأهل أيرلنده . وفى تلك الفترة خلت اسقفية ووتر فورد فانتظر ان يحظى بها ، ولكن أمله خاب بتعيين غيره . وفى السنة التالية تكرر استياؤه بمناسبة جلو اسقفية كورك ، وفشلت مهمته السياسية أيضاً وفسدت علاقته بزعماء الأحرار فعاد حانقاً الى ايرلنده وربط نفسه بعجلة حزب المحافظين واسهم فى تحرير صحيفتهم . وتوالت كتيباته فى أمهات مسائل العصر السياسية على الصعيد الداخلى والدولى واصبح اكبر سياسى غير منازع . ولم يشق له غبار فى قدرته على التهكم اللاذع والتصوير الساخر وابراز المثالب فانتشرت هجائياته واثارت اعظم الاهتمام . وبلغ نفوذه أوجه فيما بين سنتى ١٧١٠ و ١٧١٤ بحيث كان اكبر الاقطاب يترضونه ويخطبون وده .

ومما يذكر له أنه لم يستغل هذا النفوذ لاقتناء منفعة مادية أو الحصول على منح أو مناصب تدر دخلا ، بل عمل

على تحسين احوال رجال الادب من غير نظر الى اختلافهم معه فى الراى . وجمع اشتراكات كثيرة للشاعر بوب كى يطبع ترجمته الشهيرة لهوميروس ، واسدى خدمات لا تنسى الى كونجريف وبارنل وشتيل .

واظهر المحافظون تلكؤاً فى تبوىء سويفت المكانة الجديرة به فى الكهنوت ، كما تلكأ الأحرار من قبل . فعيل صبره ووجه الى المحافظين انذاراً اخيراً فى سنة ١٧١٣ والا عاد ادراجه الى ايرلندة . ولكنهم ضنوا عليه برتبة الاسقف الكاملة ودبروا له منصب نائب الأسقف فى ابراشية القديس باتريك بدبلن فى يونيه سنة ١٧١٣ .

والواقع ان يوناثان سويفت لم يكن أصلح رجال زمنه بمزاجه وسيرته وآثار قلمه لتولى مناصب الكهانة الرفيعة من أسقف ونائب اسقف . ولكنه فيما عدا شروط التقوى رجل لا غبار عليه لم يتورط فى خساسة ولم يقترف دنية فى حق رجل او امراة . ولم يكتب سطرا واحدا يخالف ضميره . ولكن لغته الصريحة صراحة مسرفة فى « حكاية طست » أخذت عليه وعدت غير لائقة بأمير من امراء الكنيسة .

وبعد سنة من ظفره بمنصبه ماتت الملكة آن فانقضى كل أمل له فى رتبة الأسقف الكاملة ، وإن كان الايرلنديون قد اعتبروه زعيمهم الذى تتمثل فيه ثقتهم للدفاع عـــن حقوقهم ومطالبة الحكومة الانجليزية بها . وكانت منزلته بينهم تقترب من القداسة وتعلو فوق منزلـــة الأساقفـــة أجمعين ، ولا سيما بين العامة والأميين من مواطنيه .

وفى هـــدوء كاتـــدرائيته العريقة شرع ســـويفت فى أعمال أدبية أهمها وأوسعها انتشاراً الى اليوم رحـــلات جليفر الشهيرة التى كانت أول عمل أدبى يتقاضى عنه من الناشر أجراً ، فقد كان قبل ذلك يرفض أن يكتب بأجـــر . وكان ذلك فى سنة ١٧٢٦ .

واستمر ســـويفت يكتب بطريقته الساخرة ، ولعل أشهر أعماله المتأخرة « توجيهات الى الخدم » التى كتبهـــا سنة ١٧٣٧ .

وفى السنوات الأخيرة من حياته اعتلت صحته كثيراً . وامتد المرض اليه من أعلى الى أسفل على نحو ما تشيخ الشجرة العجوز . فتدرج اعتلال مزاجه حتى صار نوعاً من الخبل فى سنة ١٧٣٨ ، وضع ثم تحت الوصاية محجوراً عليه سنة ١٧٤١ الى أن مات فى سن السابعة والسبعين فى ١٩ اكتوبر سنة ١٧٤٥ ودفن فى كاتدرائيته الى جـــوار « ستلا » .

ولعل أحكم تلخيص للأثر الذى احدثته وفاته عقب مرضه العقلى والبدنى الطويل كلمة ثاكرى : « عبقرى جبار تهاوى وتهدم . لا يملك المرء حين يفكر فى عظمته وجبروته الا أن يشبه سقوطه وانهياره بانهيار المبراطورية هائلة » .

٢ — رحلات جليفر

والطابع العام لأدب يوناثان سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكرة النافذ وجراته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلى . حتى لقد قيل ان نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة تهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد ، والواقع أن اطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضباً جائحاً لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى اعظم واثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه . ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ، ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بلد شديد يخيل للناس فى احيان كثيرة انه يقطر مرارة . ولهذا السبب ايضاً لا يوجه

اهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية ، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء .

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى انه طالب حقيقة شديد الحماسة واللهفة ، مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة ، متجلداً فى سخط لجميع الويلات التى تصيبه فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس . وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى سبيل شرف الانسان باعتباره كائناً عاقلا لا يهدر شرفه شىء كما يهدره كل تكبيل لعقله وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ .

لقد كان قطباً من أقطاب الكنيسة الانجليلية . وشهد فى زمنه ما بين الطوائف المنشقة من خلافات أصلية فى الرأى والاعتقاد . وشهد ما بين صفوف الانجليليين أنفسهم من خلافات حول المذهب . ولم يتردد يوناثان سويفت فى اختيار موقف محدد من هذه الخلافات . وكان دستوره فى مواطن اختلاف الرأى فيما يتصل بالعقيدة أن على العاقل الحكيم أن يتبع عقيدة الأغلبية من مواطنيه

على نحو ما يخضع ويطيع باخلاص وصدق دستور الحكم والسياسة في بلاده . وكانت رسائله التي كتبها في الخلافات الدينية تحمل هذا الاتجاه فهاجم الكثلكة بشدة . وهاجم التعصب لدى الطوائف المختلفة عموماً مطالباً بالاعتدال وعدم مصادرة راى المخالفين . ولو ادى ذلك التسامح الى شيء يسير من الرياء ، فالرياء في هذه الحالة افضل من نقيضيه : التعصب والالحاد المستهين !

ولا يسعنا الا ان نلاحظ تقارباً شديداً بين دعوة هذا الأسقف الى التسامح والاعتدال وبين دعوة الفيلسوف الفرنسي فولتير الى التسامح والاعتدال في أمور العقيدة ايضاً .

ولم يتردد يوناثان سويفت في السخرية على اساس عقلي على الصورة العنصرية بما تنطوى عليه أحوال المتصوفين من اختلال نفساني مرضي ، وذلك على الخصوص في رسالته عن الفعل الميكانيكي للنفس . وقد ذهب في هذه الرسالة في التشريح الدقيق الى ابعد مدى حينما حلل بصرامة مذهلة حالات معينة من النشوة الصوفية وطابق بينها مطابقة دقيقة وبين حالات من الهياج الجنسي والشهوات البدنية المحض . ويشعر القارىء من لهجة سويفت في اثبات هذا التطابق انه ينطوى على سرور خفي بهذا الانتقام من جانب نصير العقل

البشرى الحر ضد الأكاذيب الموروثة التى يتلقاها النـــاس بالتقديس من غير مناقشـة أو تمحيص .

وفى المجال الفكرى المحض نجــد « المعركــة بين الكتب » حرباً شعواء يشنها ضد السطحية وضيق الأفـق والتعمق الزائف فى الدراسة والمغالطة . وضد موجـــة الجيل الجديد من الأدعياء الذين يزعمون التصدى لانشاء أدب عصرى مع الجهل أو التجاهل الوقح باعمـــال العمالقة الأقدمين أساتذة الثقافة والأدب والفكر الخالدين . فهؤلاء وهؤلاء حشرات طفيلية تفسد جو الأدب والفكر على أنحاء مختلفة كلها هزيل فاسد ضار . فلا بد للفــكر الحقيقى والأدب الحقيقى من ذوق سليم وعقل يقظ وعــلم عميـق واطلاع واسع وفهم حى متجدد . فلا التكلف صالح للبقاء فى أثواب الجمود التقليدى ولا الجهل صالح للبقاء بوقاحته المستحدثة !

وفى كل مجال من هذه المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفاً معيناً وموضوعاً محدداً . ولا يخرج على هذه القاعدة الا فى كتاب واحــد هــو بيت القصيد من هذه السطور الا وهو « رحلات جليفر » ففيه يتسع هدف سويفت اتساعاً غير مألوف لديـــه . فهـــو دراسة السلوك البشرى من طرفيه المتناقضـــين ضآلـــة

وضخامة . وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شىء كثير من السخرية التى لا تبتعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة ، متناولا بالنقد والهجاء السلوك الاقتصادى والتفكير العلمى ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه .

ولا تنم رحلات جليفر على تقدير كبير من جانب سويفت لحركة التقدم العلمى الحديث على نحو ما كانت فى زمنه . فاذا به يستهزىء بنظرية نيوتن فى الجاذبية وبما وصل اليه بنتك من استنتاجات . فهذه كلها فى نظره فروض والاعب يتخذها الفكر ثم لا تلبث جدتها أن تبلى وتنقضى موجة « موضتها » لتحل موجة أخرى محلها . ولعل هذه هى الناحية الوحيدة فى كتابات سويفت التى جنح فيها الى الشكوكية والانكار .

ومن أطرف عناصر رحلات جليفر بلا شك تصويره الساخر لعالم السياسة والملأ الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته ، اللوالب الخفية الحقيرة غالبا التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة . فاذا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الخادعة ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة الا بالرثاء والازدراء .

ولا يعفى من مبضعه الحاد وانواره الكاشفة الفاضحة النظام الملكى عموما فى كل زمان ومكان ، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط ، وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات ، وفى المحظيين والعشاق المقربين الى هؤلاء العشيقات . والى وسائل الرشوة والتحاسد الصغار فى الخصومة . وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقة من المبادىء والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب !

وكى يصل يوناثان سويفت الى هدفه هذا العريض ينقلنا بين عالمين متناقضين ، عالم الأقزام وعالم العمالقة . وبهذا التغيير الهائل فى « مستوى النظر » يتغير «المنظور» تغيراً شاملا . وهو اذ يبدأ بعالم الأقزام يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فاذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقزام يمارسونها ، شىء سخيف مفرط فى السخف نستغرق منه فى الضحك ، وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين اليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان !

وحين ينتقل بنا الى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا ، كما يكشف لنا أيضاً عن ضآلتنا

وغرورنا ، فيخرج المرء من الرحلتين وقد امتلأت نفسه بتفاهة شأن الانسان وتفاهة كل تلك النظم التى يستهول امرها ويتناحر حولها . وهو شعور يملأ الجوانح اسى واشفاقاً واسفاً .

ويضع جليفر امام انظار الانسان القدوة الجديرة به لا في عالم من اقزام البشر ولا فى عالم من عمالقتهم ، بل فى أرض « الخيول الفيلسوفة » حيث نرى حياة الحيوان مثلا يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة ، فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثاً فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها . فهذه الدواب على أربع تنظر الى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولا معقولة لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية . فحضارتنا البراقة بكل ما فيها من تقدم شىء جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة .

وبذلك تصل سيمفونية يوناثان سويفت عن البشر فى هذه الالياذة الخرافية الى نغمة الختام التى تفيض باحساس واحد يطبق علينا : التشاؤم . التشاؤم من روح الانسان . ففى هذه الروح يكمن الشر الحقيقى . اما الحيوان فلا يعرف الشر الأخلاقى لأنه برىء من هذه الصفة : الروح .

ولم يفت الكثيرين من المعـــلقين والنقـــاد ترجيح صدور هذا التشاؤم المطبق عن جسم عليل ونفس أسقمتها الأمراض وحزت فيها صدمات متلاحقة من الفشل وهبوط الآمال . وما أكثر ما تخيم أبخرة المرة السوداء على العقل والأعصاب فتسلمها الى الحد والاختلال مع نبوغ وتوقد . وفى حبائل الخبل العقلى قضى هذا العبقرى أواخر حياتـــه المرورة . ولكن من هذه الأدخنة السوداء القائمة يتألق وهج العبقرية خاطفاً للأبصار ، خالباً للألباب . ومهمـــا خالفناه فلن يسعنا الا أن نعجب به .

٣ ــ خلاصة الرحلات

يصرح يوناثان سويفت بأن غايته القصوى من كتابة رحلات جليفر فى العالمين الأكبر والأصغر وممالك شتى فى آفاق الأرض « أن يوبخ النـــاس ويقرعهـــم لا أن يسليهم ويرفه عنهم ! » ولكن هذا العبقرى لم يبلغ غايته هذه من كتابه هذا . فقد شاء ما فطر عليه البشر من أنانية وقصر نظر أن يقلب هذه الغاية ، وأبى الناس منذ نشر الكتاب فى سنة ١٧٢٦ حتى اليوم الا أن يجدوا فيه مصدراً للتسلية والترفيه لا يقفان عند حد ، ولم يلتفتوا الى ما فى الكتاب من زجر وتقريع وتعنيف !

وظلت الأجيال من الكبار والصغار تتقبل هذا رحلات جليفر بروح الاستمتاع على مستويات مختلفة ، أما الدرس والاعتبار فلم يغيرا من طبيعتهم كثيراً ولا قليلا .

ويبدأ الكتاب على لسان جليفر فيروى طفولته ونشأته واحترافه الطب والجراحة آخر الأمر وركوبه البحر على متن احدى السفن طبيباً لركسابها فى رحلاتها الى المشرق . وفى سنة ١٦٩٩ كانت السفينة تمخر البحار الجنوبية عندما ارتطمت بصخرة فانشقت . وظل جليفر يسبح على غير هدى ، ودفعه المد واتجاه الريح حتى مست قدمه الأرض فى ظلمة الليل ، وارتمى على الشاطىء مجهداً واستغرقه النوم حتى الصباح . وحين ايقظته حرارة الشمس هسم بالنهوض فاذا هو مقيد الى الأرض . وهم بتحريك رأسه فوجدها مشدودة الوثاق أيضاً . واحس شيئـاً يتحـرك بلطف فوق ساقه ثم فوق صدره ، فحرك عينيه الى أسفل ، ولم يلبث أن تبين مخلوقاً بشرياً لا يبلغ ارتفاعه ست بوصات (١٥ سنتيمتراً) وفى يده قوس ونشاب ، ثم شعر بعـدد آخر من نظرائه يزحفون فى أثره ، وبحركة عنيفة تمكـن جليفر من تحطيم قيود ذراعه الأيسر ، ولكن هذه المخلوقات الصغيرة تمكنت من الفرار قبل أن يقبض عليها فى راحـة يده . وأحس بمئات من السهام ترشق فى يده اليسرى فكان لها وقع كوخز ابر . وظل يئن أسى والمـا الى أن اقـدم

بعضهم على قطع الحبال التى تقيد حركة رأسه ، وعندئذ استدار قليلا وأبصر شخصاً يبدو زعيم القوم يلقى عليه حديثاً طويلا لم يفهم منه شيئاً . وحاول جليفر بالاشارة أن يفهمه مبلغ ما يحسه من الجوع ، ففهم الزعيم مراده وسرعان ما جيء بسلالم كثيرة القيت على جانبيه وصعدها مئات من هؤلاء الأقزام محملين بالطعام والشراب ، فيصبون سلالهم ودلاءهم وقربهم فى فمه !

ويبدو أن رسالة سريعة وصلت امبراطورهم بمجرد اكتشافه نائما على الشاطىء ، واجتمع مجلس البلاط وقرر العناية بتغذيته وتأمين سلامته ونقله الى العاصمة . ولهذا الغرض مزجوا الخمر التى صبوها فى فمه بمخدر فاستغرقه النوم مرة أخرى . ولاحظ جليفر أن هؤلاء القوم وصلوا الى مستوى رفيع من الاتقان الآلى فاستطاعوا بواسطة الحبال والبكر أن يرفعوه فوق آلة ضخمة فى زمن لا يزيد على ثلاث ساعات . وهذه الآلة معدة لنقل الأشجار الكبيرة وغيرها من الأحمال الثقال . وشد الى المركبة العجيبة الفا وخمسمائة جواد من أضخم جيادهم . ويبلغ ارتفاع كل منها نحو أربع بوصات ونصف (١٠ سنتيمترات تقريباً) وتولت جره الى العاصمة حيث حبسوه مقيداً بالسلاسل . وحضر الامبراطور لمشاهدته وعقد البلاط جلسات كثيرة

احتدمت فيها المناقشات حول خطورة حجمه وما يترتب على تحطيمه لأغلاله . واحتمالات المجاعة التى قد تنشأ عن الاحتفاظ به . بيد أن وداعة جليفر طمأنت بالهم . وتوثقت الألفة بينه وبين الامبراطور . واخذ يدرس أحوال هذا الشعب السياسية والاختلافات التافهة بين مبادئها . فهناك مثلا خلاف حول ارتفاع كعب الحذاء ! وهناك أيضا عداء بين جزيرة ليليبوت هذه وجزيرة بليفوسكو التى أعدت اسطولا للغزو . أراد الامبراطور أن يستغل ضخامة جليفر فى سحق أعدائه فأطلقه وخاض ماء البحر الذى وصل الى ركبتيه ثم شرع يحطم أسطول الأعداء أو يأسر سفنهم ويعود بها الى حلفائه . وطمع الامبراطور فى استخدام جليفر لغزو هؤلاء الأعداء واحتلال بلادهم واستعباد أهلها ، فرفض جليفر أن يكون أداة لهذا الغرض الهمجى . فغضب الامبراطور واخذ يدبر المكائد للانتقام منه . وفطن جليفر الى الحقيقة فقرر الرحيل الى جزيرة الأعداء ومن هناك أعدوا له الوسائل للاقلاع عائداً الى بلاده وأعطوه الوفا من أغنامهم وأبقارهم التى يشبه حجمها النمل الكبير والصراصير . وأخذ معه أنواعاً من الطرائف فى دقة حجمها وخصوصا من الكائنات الحية والمصنوعات المستخدمة فى الحياة اليومية والفاكهة على أمل أن يربى سلالات من الأغنام والماشية والخيل فى قريته . وأصر الملك على تفتيش جيوبه بدقة شديدة خشية أن يخفى فيها بعض رعاياه !

وبعد رحلة استمرت ثلاثة ايام لمح على البعد شراع سفينة انجليزية فظل يصرخ ويلوح . واخيرا ابصره الربان وانتشله بعد أن وضع جليفر فى جيوبه جميع ابقاره واغنامه . ولكن فيران السفينة الانجليزية كانت تفترس أبقاره .

وبعد اقامة وجيزة فى انجلترا مع زوجته واسرته عاوده الشوق الى المغامرات والأسفار فاستقل سفينة تجارية كبيرة متجهة الى الشرق ايضاً . وبعد أن اجتازت السفينة مضيق مدغشقر هاجمتها الرياح الموسمية وضلت طريقها ونضب الماء العذب فنزل مع بعض البحارة الى اقرب جزيرة للبحث عن الماء . وظل يسير مقدار ميل على غير جدوى ثم هم بالعودة فابصر رفاقه البحارة فى زورقهم يجذفون بهمة عائدين الى السفينة ومن ورائهم مخلوق هائل يخوض الماء الى ركبتيه فى أثرهم .

وهكذا وقع جليفر فى أسر اهالى بروبدنجناج العمالقة الذين اجتمعوا حوله يتلهون به ويدفعونه بين السبابة الابهام ليتأملوه عن قرب وكأنه نوع غريب من الحشرات .

واحتفظ به صاحب الضيعة الذى اسره وفرحت زوجته بهذا المخلوق الصغير بعد ان صرخت لأول وهلة كما تصرخ سائر النساء لمنظر شىء يحسبنه فارا ! وزاد

افتتان الزوجة به حين رأته يحسن الانحناء ويعاملها بآداب المجتمع الراقى ويستخدم الشوكة والسكين اللذين كان يحملهما فى جيبه . ولم يجد جليفر عنتاً الا من ابن ذلك المزارع وهو غلام فى العاشرة مدلل يعامل الحيوانات بقسوة . اما طفله الصغير الذى لا يتجاوز عمره العام فكان يعتبره دميته المفضلة . وفى الليل نام على وسادة صغيرة فى فراش الزوجين الضخم . وهاجمه فاران فى حجم كلاب الصيد عندنا ، ولولا براعته فى استخدام خنجره بحيث جرح احدهما فلاذت الفيران بالفرار لنهشته بسهولة .

وفكر المزارع فى استغلال جليفر تجاريا ، فراح يطوف به الموالد والقرى والمدن ويجتمع الناس لمشاهدته فيعرض عليهم العابه ، حتى جمع الرجل ثروة كبيرة ، وهزل جسم جليفر من شدة الارهاق فباعه الرجل للملكة بالف قطعة ذهبية . وهكذا صار مهرج الملكة القزم واستطاع ان يرى دخائل حياة البلاط عن كثب لسهولة اختفائه تحت الكراسى وخلف الستائر . وقضى هناك ثلاث سنوات . وفى بعض الرحلات التى قام بها

البلاط حملته الوصيفة فى صندوق صغير خاص كاقفاص الطيور عندنا . وغفلت عنه الوصيفة على الشاطىء فحمله نسر هو وقفصه ووقعت بين النسور معركة على هذه الفريسة فسقط الصندوق فى البحر وتقاذفه الموج الى ان انتشلته سفينة انجليزية مارة من هناك فأعادته الى انجلترا ، حيث اقسمت زوجته الا تدعه يركب البحر بعد ذلك . ولكن قبل انقضاء عشرة أيام زاره ربان كبير المقام وظل يغريه حتى قبل العمل طبيباً وجراحاً على سفينته المتجهة الى جزائر الهند الشرقية . وهكذا بدأت رحلة جليفر الثالثة الى ممالك كثيرة فى الشرق الأقصى حتى وصل الى اليابان واحاط بعادات أهلها وشرائعهم .

اما رحلته الرابعة فهى التى صار فيها رباناً للباخرة . وفى مجاهل البحر ثار عليه البحاره وحبسوه فى قمرته مدة طويلة ثم تركوه على شاطىء جزيرة مجهولة . وسكانها هم « الخيول الفيلسوفة » أو الياهو . وتعرف الى عاداتهم وأحوال معيشتهم . وحاول آسره ان يعلمه لغتهم . ثم بدأ يلقنه مفهوم الحق والباطل والصواب والخطأ فى نظر هذه السلالة من الخيول الحكيمة ويبدى اعتراضه ورفضه للمفهوم البشرى لهذه المعانى ، ثم

يتطرق الحوار الى مناقشة أحوال الحضارة الأوربية وانظمة الحكم والدستور الانجليزى وسمات رؤساء الوزارات : ومن خلال هذه المناقشات تبرز حكمة هذه الحيوانات ارجح فى مواطن كثيرة من سلوك البشر المتحضرين فى دول الغرب المتقدمة ... ويفيض جليفر فى فضائل هذه الحيوانات وأساليبها فى تربية الأحداث والشبان ونظم السياسة والحكم لديها وسائر عاداتهم فى أحوال المعاش المختلفة بما فى ذلك أسلوب البناء وشعائر الدفن . ويطنب فى وصف سعادته بين ظهر انيهم وتقدمه فى المنطق والفضيلة ، الى ان طلب اليه أن يغادر بلادهم وزودوه للسفر فارتحل حزيناً على فراقهم الذى جاء على كره منه . ولولا ذلك لآثر البقاء .

٤ ــ نبذ متفرقة من الرحلات

ــ (فى عاصمة امبراطورية الاقزام « لليبوت » وقد قيدوه بالسلاسل بحيث يستطيع الحركة فى دائرة نصف قطرها ياردتان وبحيث يستطيع الدخول الى المعبد القديم الذى شدوه الى بوابته ليتوارى عن الانظار راقداً على الأرض .

. . . . وعندما الفيت نفسى على قــدمى نظــرت حولى . ولا بد لى ان اعترف باننى لم اشهد فى حياتى منظرا امتع للعين مما رأيت عندئذ . فالريف من حــولى بدا وكأنه حديقة متصلة الآماد . والحقول المسورة ـــ ومساحة معظمها اربعون قدماً مربعاً ـــ بدت لى كأنهــا احواض للزهر فى هذه الحديقة المترامية . وكانت الغابات تتخلل هــذه الحقــول . واعلى اشجــار فيهــا تراءى ارتفاعها نحو سبعة اقدام . ورأيت المدينة عن يســارى كأنها منظر مرسوم لمدينة ممــا يستخــدم على خشــبة المســارح .

وكنت أعانى منذ ساعات اشد المعاناة من ضــغط ضرورات الطبيعة . وليس فى ذلك ما يدعــو للعجب اذ كان قد انقضى يومان تقريباً على آخر مرة افرغت فيهــا امعائى . وتنازعتنى هذه الحاجة الملحة وشــدة الخجــل اشد التنازع . فكان افضل حل خطر لى أن احبــو الى داخل مأواى . وكذلك صنعت ثم اغلقت البوابة خلفى وابتعدت الى اقصى ما سمحــت لى به قيود رجــلى ثم خــلصت بدنى من ذلــك العبء الممض . ولكن هــذه

كانت المرة الوحيدة التى اقترفت فيها هذه الفعلة المجافية للنظافة . وفى مامولى ان يمهد لى القارىء السمح العذر فيها وقد احاط بحالتى ومبلغ ما كنت فيه من الكرب . وبعد هذه المرة ثابرت بمجرد يتفتى فى الصباح على قضاء هذه الحاجة فى الهواء الطلق على ابعد مدى تسمح به قيودى . ولاحظت انهم كانوا يحرضون على ازالة هذه النفايات على الفور ، ينقلونها فى اضخم عربات النقل لديهم على يد خادمين خصصا لهذه المهمة قبل حضور احد من الناس لمشاهدتى ...



ــ وما اسرع ما انتشرت انباء وصولى الى هذه البلاد فى ارجاء المملكة . فاقبلوا من فجاجها البعيدة فى اعداد هائلة معظمهم من الاثرياء والمتبطلين واهل الفضول . حتى لقد اوشكت القرى ان تخلو من اهلها . ولا شك ان شئون الفلاحة وادارة الأعمال وتدبير البيوت كانت كلها قمينة أن تتعرض للتعطيل والبوار لولا ان صاحب الجلالة الامبراطورية اتخذ التدبيرات

الحازمة بعدد المراسيم والأوامر الرسمية فى مواجهة هذا الخطر الطارىء . واقتضت ارادته ان يعود جميع من شاهدونى الى مقارهم ولا يقتربوا بعد ذلك من موضعى اكثر من خمسين ياردة الا بتصريح خاص من البلاط . ومن هذا المنفذ استطاع وزراء الدولة أن يجمعوا اموالا طائلة عن طريق الرشوة ! ...



وذات صباح بعد انقضاء نحو أسبوعين على حصولى على حريتى حضر الى مقرى وزير الداخلية وليس فى صحبته الا خادم واحد ، وأمر عربته أن تنتظر على مسافة بعيدة ثم أعرب عن رغبته فى الاجتماع بى ساعة من الزمن ، فوافقت على الفور رعاية لمقامة ، ولمزاياه الشخصية ، وعرفانا لخدماته الكثيرة التى أداها لى اثناء نظر التماساتى أمام البلاط .

وعرضت عليه ان اضطجع على الأرض كى نتبادل الحديث ويكون من اليسير عليه عندئذ ان يصل الى اذنى ، بيد انه آثر ان يدعنى ارفعه فوق كفى الى اذنى طول المدة

التي استغرقتها محادثاتنا . وبدأ بتنئتي على نوالي حريتي، وقال انه يدعي لنفسه بعض الفضل في ذلك ، الا انه يعترف بأنني ما كنت لأحصل على حريتي بهذه السرعة لولا الظروف الراهنة التي تسود البلاط الامبراطوري وقال : « ان احوالنا تبدو للأجنبي مزدهرة غاية الازدهار. ولكننا في الحقيقة نعاني من آفتين شديدتي الوطأة ، الا وهما الانقسام العنيف في الداخل والخطر المحدق من الخارج متمثلا في تهديد أقوى أعدائنا بالاقدام على غزونا . اما الانقسام الداخلي فهو قائم على قدم وساق منذ أكثر من سبعين شهراً قمرياً بين الحزبين المتنازعين على السلطان في هذه الامبراطورية ، وهما حزب الكعوب العالية وحزب الكعوب المنخفضة ... ! » .

★★★

ــ (في اسر مزارع بجزيرة العمالقة « بروبدنجناج » وقد اثرى الرجل من عرضه على أهل الفضول ليقوم بالعابه بلا انقطاع تقريباً متنقلا بين المدن والقرى الى أن ساءت صحته) .

....وفى هذه الاسابيع القليلة من الجهــد المضنى المتواصل تغيرت صحتى تغيراً جسيما ، فكلما جنى سيدى المال من وراء عملى الشاق ازداد نهمـــه وجشـــعه حتى صرت اشبه بهيكل عظمى . ولاحظ المزارع ذلك فاعتقــد انى لا شـــك هالـــك من قريب ، وقـــرر ان يفيد منى للمرة الأخيرة اكبر فـــائدة ممكنـــة . وفيما هـــو يفـــكر ويقدر ويدبر الأمر بينه وبين نفسه اقبل ياور من ياوران القصر موفداً من البلاط ليبلغ سيدى أمراً عاليا بحمـــلى على الفور الى هناك كى تتفكه بمشاهدتى الملكة وسيدات البلاط . وكانت طائفة من اولئك السيدات قد شـاهـــدتنى من قبل ورفعن الى جلالته انباء عجيبة من جمالى وتهذيب سلوكى وحسن فطنتى .

وبلغ سرور جلالتها ومن حولها غايته لما ابديته من سلوك حميد ، فقد ركعت على ركبتى والتمســـت شرف تقبيل قدمها الامبراطورية بيد أن هذه الملكـــة الرفيعـــة القدر الكريمة الخلق مدت نحوى خنصر يدها (بعـــد أن رفعونى فوق مائدة) فعانقت ذلك الخنصر بذراعى كليهما ووضعت طرف البنان باقصى احترام على شفتى ووجهت

الى جلالتها أسئلة عامة عن بـــلادى وأسفارى ، فأجبت عن هذه الأسئلة بأقصى وضوح وأوجز كلـــمات فسألتنى أيسرنى أن أعيش فى البلاط ، فانحنيت حتى مسست ظهر المائدة التى أقف فوقها وأجبتها بخضـــوع اننى عبد رق لسيدى ، ولو كان أمرى بيدى لأزهانى أن أقف حياتى على خـدمة جـــلالتها . فسألت مولاى أيحب أن يبيعنى بثمن طيب . وكان يخشى الا أعيش شهرا فاظهر استعداده للنزول عنى ، طالبا الف قطعة ذهبية مقابل ذلك ، فاديته اليه فى التو واللحظة . وكل قطعة منها فى ضخامة حجـــر الرحى ، تمشيا مع نسبة التفاوت فى الحجوم بين كل شىء هناك وكل شىء فى أوربا .



ـــ (فى دولة الخيول الفيلسوفة وقد شرح جليفـــر لسيده أنظمة الحكم فى أوربا وأحوال السياسة والدستور الانجليزى الذى يعتبر مفخرة الانجليز . وعندئذ جـــرى ذكر رئيس الوزراء فى انجلترا فسألـــه سيده ماذا يعنى بذلك) .

... فقلت له ان كبير وزراء الدولة مخلوق مبرأ من الفرح والحزن ، ومن الحب والبغض ، ومن الشفقة والغضب . فهو لا يصدر عن عاطفة بشرية فى حياته وعمله سوى شهوة عارمة فى احراز الثراء والسلطان والألقاب . ويستخدم الفاظه لشتى الأغراض اللهم الا لغرض التعبير عن رأيه الحقيقى . وهو لذلك لا يقول الصدق مطلقا الا فى حالة واحدة ، الا وهى أن يعلم سلفا أنك ستأخذ صدقه مأخذ الكذب . وهو لا يكذب مطلقا الا وهو يرى الى أن تأخذ كذبه مأخذ الصدق . ومن يخوض فى حقهم من وراء ظهورهم بأسوأ المثالب هم أحظى الناس لديه ، ومتى شرع فى امتداحك أمام الناس أو فى محضرك فثق انك منذ ذلك اليوم مقضى عليك بالنبذ . وأسوأ ما تستطيع الحصول عليه منه وعد أو كلمة شرف ، ولا سيما أن عزز ذلك بيمين مغلظة . والحصيف العاقل من يدرك قيمة هذه الوعود العذبة فيصون نفسه ويعتزل محيط رئيس الوزراء قاطعا كل أمل مطمئنا الى هذا اليأس .

وثمة ثلاث وسائل يمكن أن ينتهجها المرء للارتقاء الى منصب كبير الوزراء . والوسيلة الأولى أن يعرفه

كيف يستغل بحصافة زوجته او ابنته او أخته . والوسيلة الثانية أن يخون أو يغتاب أو يدس لسلفه . والوسيلــة الثالثة أن يبدى همة وغيرة حماسية فى المجتمعات العــامة ضد المفاسد التى تسود حياة البلاط . والملــك الحصيف حقا يفضل أن يختار لرئاســة الوزارة من ينتهجون الوسيلة الأخيرة . لأن أولئك المتحمســين فى غيرتهم يتمخضــون دائماً عن أشد رؤساء الوزارات خضوعاً وخنوعاً وتفانيا فى تنفيذ مآرب سادتهم وأهوائهم !

☆☆☆

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٦٧٨/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4604 — 0

مكتبة الأسرة



بسعر رمزي خمسون قرشا

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦ 1996

مطابع
الهيئة المصرية
العامة للكتاب